السلطان مصطفى الثاني

فترة الحكم: ١٦٩٥ – ١٧٠٣

السلطان العثماني الثاني والعشرون

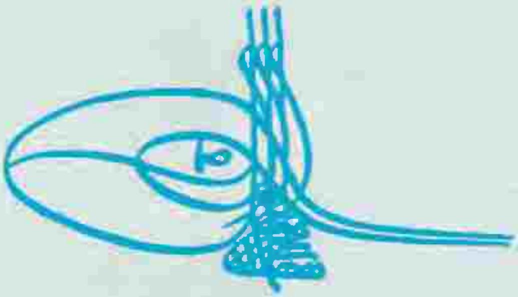

الألقاب، والأسماء الشعرية: الغازي وإقبالي ومفتوني

اسم الأب: السلطان محمد الرابع

اسم الأم: السلطانة الوالدة "ربيعة كُولْنوش أمة الله"

محل وتاريخ الميلاد: أدِرْنه،

٢ يونيو/حزيران سنة ١٦٦٤

العمر عند اعتلاء العرش: ٣١ عاما

سبب وتاريخ الوفاة: الاستسقاء،

٢٩ من ديسمبر/كانون الأول سنة ١٧٠٣

مكان الوفاة وموقع الضريح: إسطنبول، ودفن في مقبرة السلطانة الوالدة خديجة تُرخان بالقرب من المسجد الجديد بإسطنبول

أبناؤه: محمود الأول وعثمان الثالث ومحمود محمد وسليم ومراد وحسن وحسين وسليمان وأحمد

بناته: عائشة سلطان، وأمينة سلطان وصفية سلطان وأمة الله سلطان

لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان مصطفى الثاني، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

اعتلى السلطان مصطفى الثاني العرش خلفا لعمه السلطان أحمد الثاني. وفي تلك الأثناء كان الصليبيون يهاجمون العثمانيين بشكل خطير من عدة جبهات منذ حصار فيينا الفاشل. حاول مصطفى الثاني تولي السلطة الفعلية للدولة رغم صراع السلطة المستمر الذي تشنه أحزاب كثيرة مختلفة داخل الحكومة؛ فقام السلطان بالاستغناء عن كبار الموظفين وتعيين آخرين جدد ممن يثق بهم أكثر، ويعكس ذلك رؤيته لدولة مركزية قوية ومتسقة، ورغبته في تحقيق أهدافه التي وضعها خلال سنوات إمارته.

هزمت القوات البحرية العثمانية البندقية المدعومة من البابوية والمورة، واستعاد العثمانيون جزيرة شيوس (صافيز) في النهاية، التي كان قد اجتاحها البنادقة خلال حكم عمه أحمد الثاني. وفُسّر ذلك النصر المبكر باعتباره علامة على النجاحات المستقبلية، وأقيمت احتفالات النصر، ووزعت عطايا الجلوس. كما مثلت الغارات الناجحة التي شنها "شاهباز كِيرايْ"، خان تتار القرم، في الأراضي البولندية باسم العثمانيين، إلهاما وحافزا للسلطان.

أراد السلطان مصطفى الثاني أن يقود الحملات بنفسه مثل كثير من السلاطين السابقين. وكان يقول: "لقد أنعم الله تعالى علي بالخلافة، ولذلك فأنا ملتزم بالامتناع عن أي نوع من الراحة والترفيه". وكان يرى أن انغماس السلاطين في اللهو والتسلية وإهمالهم شؤون الدولة كان السبب الرئيسي وراء الهزائم المتلاحقة. فعزم مصطفى الثاني على شغل نفسه بالغزوات، وبهذه العزيمة مع عون الله سوف يستعيد العثمانيون الأراضي المسلمة التي استولت عليها القوى الأوروبية، ويعيدون فتح الأراضي التي خرجت من أيديهم.

كان السلطان مصطفى الثاني معجبا بالسلطان سليمان القانوني، ولذلك أعرب لرجال الدولة عن رغبته في قيادة الجيش بشكل مباشر. لكن رجال الدولة – ومن بينهم الصدر الأعظم – عارضوا الفكرة وأوصوا بأن يبقى

السلطان بأدِرنه، لأن اشتراكه في الحملات سوق يكلف الخزانة السلطانية كثيرا. فردّ السلطان مصطفى الثاني بأنه سوف يصرف ما يصرفه الجندي العادي، وسيأكل ويشرب مثلهم، ولا حاجة لتخصيص أموال إضافية له. وفي نهاية المطاف ارتدى السلطان درعه وتقلّد سيفه وامتطى فرسه وسار إلى النمسا في ٣٠ يونيو سنة ١٦٩٥. وتجمعت بعض القوات العثمانية في "تيميشوار" وبلجراد وتمكّنت أولا من فتح لِيبًا (Lippa) وقاد السلطان الجيش عندما واجهوا القوات النمساوية في منطقة غابات بولدور. وبتعزيز من القوات القرمية وتحفيز السلطان تمكن الجيش العثماني من سحق القوات النمساوية، لكن وفاة واليي الأناضول والروملي -شاهين محمد باشا ومحمود باشا- خلال الحرب أغمّت السلطان الذي اشتهر عنه قوله الحزين: "لقد شهدتُ النصر في بولدور، لكن الثمن كان فادحا فقد خسرت حبيبيّ شاهين ومحمود".

دارت جملة من المعارك الضارية بين العثمانيين والروس بسبب انضمام روسيا إلى "التحالف المقدس"، وحصارهم اللاحق لحصن آزاق، كجزء من هدفهم النهائي وهو الوصول إلى منطقة البحر الأسود. حاصر قيصر روسيا بيترو الأول آزاق من البر والنهر ولم يستطع العثمانيون الدفاع عن الحصن أكثر من ذلك. وسقطت المدينة في ٦ أغسطس/آب عام ١٦٩٦، مما تسبب في موجة من الحزن الهائل وسط الشعب وفي دوائر القصر، وأصدر السلطان – ردا على ذلك – مجموعة من التعليمات لاسترداد المدينة. وفي نفس الأثناء وصلت أنباء انتصارات القائد الأعلى للقوات البحرية العثمانية (قبطان البحر) حسين مزيمورتا باشا في المورة وبحر إيجة على البنادقة، وهو ما رفع الروح المعنوية ولو بشكل جزئي.

وما إن رجع السلطان مصطفى الثاني من أدِرنه إلى إسطنبول، حتى أطلق الاستعدادات لحملة ثانية، وطلب من رجال الدولة المعنيين تعيين الجنود ودفع نفقاتهم. وصل الأمر إلى تجنيد الحراس المسؤولين عن أمن العاصمة العثمانية والقصر في الجيش، وذلك للمرة الأولى في التاريخ العثماني. وقبل الانطلاق من بلجراد للقيام بحملته الثانية على النمسا عام ١٦٩٦، وكان ذلك في شهر رمضان، فتح السلطان الخزانة الذهبية التي تحوي عباءة الرسول ﷺ أمام مجلس الحرب السلطاني، ودعا الله متضرعا ومتوسّلا أن يمن عليه بنصر يشبه نصر موهاج في عهد السلطان سليمان القانوني. وتغير سياق الحملة العثمانية بعد حصار النمسا لمدينة "تيميشوارا". وفي ٢٧ أغسطس/آب عام ١٦٩٦ انتصر العثمانيون انتصارا كبيرا بعد معركة ضارية، استجابة لدعاء السلطان. وفي نفس العام انتصر العثمانيون في معاركهم ضد البنادقة.

وأصبحت النمسا بين نارين؛ فقد كان عليها أن تحارب كلا من العثمانيين والفرنسيين، ولذلك عرضت السلام على العثمانيين. لكن مصطفى الثاني الذي أحرز نصرين متتاليين ضد النمساويين توقع انتصارات أخرى، ولذلك فقد أجل عرضهم انتظارا لعرض يتضمن مكاسب أكبر للعثمانيين. وفي العام التالي سيّر السلطان حملته الثالثة والأخيرة. واجتمع مرة أخرى بمجلس الحرب في

مشهد لمضيق البوسفور من برج العدالة بقصر "طوب قابي".

بلجراد حيث ناقش خطط الهجوم وتفاصيله. وظهر اقتراحان وجيهان في اجتماع المجلس فيما يخص خط سير الحملة؛ فبينما اقترح آمْجَازَادَه حسين باشا السير في اتجاه الشمال الشرقي نحو فارادين، اقترح عدد كبير من رجال الدولة الآخرين السير إلى تيميشوار. وهنا أقرّ السلطان رأي الأغلبية وأمر جيشه بالسير في اتجاه الشمال الشرقي نحو تيميشوار.

لكن اختيار العثمانيين لمدينة تيميشوار أدى إلى مشكلات كثيرة؛ فبدلا من فارادين القريبة من بلجراد، انطلق الجيش من بلجراد في اتجاه تيميشوار الأبعد، وفي طريقها الكثير من الأنهار والمستنقعات، وهو ما تطلب تشييد طرق مصنوعة من الألواح الخشبية من أجل العبور عليها. وكان الجيش العثماني يحاول عبور نهر أوسا عندما وصل إلى زينتا، لكن الجيش النمساوي الذي علم بالخطط العثمانية القتالية هاجم الجيش العثماني بأسلوب سريع وغير متوقع. وعندما لم تستطع القوات التي عبرت الجسر بالفعل المساعدة بأية طريقة، دب الذعر في بقية الجيش وتشتّت، واستشهد الصدر الأعظم ألماس محمد باشا. واغتمّ السلطان مصطفى الثاني غمّا شديدا بتلك الكارثة المفاجئة، وسار بالجيش إلى تيميشوار. وفي أعقاب انتصار القوات النمساوية في

معركة زينتا، تقدموا كثيرا حتى وصلوا إلى سراييفو، وأحرقوا المدن التي مروا بها وأحدثوا بها دمارا واسعا.

خلفت هزيمة معركة زينتا أثرا عميقا على مصطفى الثاني، الذي كان يدرك تمام الإدراك أنه أصبح عليه الآن أن يطلب السلام من العدو، لكنه رأى أن ذلك الطلب سيكون مهينا جدا بالنسبة لسلطان عثماني. فقرر السلطان الاستمرار في الحرب رغم مطالبة رجال الدولة، ومن بينهم الصدر الأعظم آمْجَازَادَه حسين باشا، بإنهاء سلسلة الحروب المتزامنة التي تستنزف الوقت والموارد.

اتخذت الحروب ضد النمسا وبولندا والبندقية وروسيا منحى هابطا خلال عهد السلطان مصطفى الثاني. وتدخل سفيرا بريطانيا وهولندا لإنهاء جميع الحروب. وفي عام ١٦٩٩ وُقّعت معاهدة كارلوفجا في كارلوفجا القريبة من بلجراد، فأنهت سلسلة الحروب العثمانية التي دامت ستة عشر عاما. وقد دلت تلك المعاهدة على بداية الخسائر المستمرة في الأراضي العثمانية. وبشكل خاص أُعطيت جميع الأراضي المجرية للنمسا فيما عدا تيميشوار، وأعطيت المورة وجزء من دلماشيا للبندقية، بينما ذهبت بودوليا لبولندا. وأخذت روسيا حصن آزاق بموجب اتفاقية إسطنبول التي أبرمت سنة ١٧٠٠.

قفطان سلطاني قصير الأكمام، قصر "طوب قابي"

أضعفت الحروب المستمرة على جبهات متعددة الهيكلَ الاقتصادي والاجتماعي للدلولة العثمانية إلى حد كبير، فقد فُرضت ضرائب جديدة وارتفعت الضرائب القديمة بسبب تكاليف الحرب الباهظة التي كانت تُدفع من الخزانة السلطانية مباشرة. ولإيجاد الموارد اللازمة للحروب قام السلطان مصطفى الثاني أيضا بمصادرة ممتلكات الأغنياء وجمع ضرائب السنوات المقبلة قبل وقت استحقاقها. ولاحظ السلطان مصطفى سوء النظام المتفشي في صفوف جنود "كابي كولو" و" السيباهي"، فجنّد عددا من الجنود من بين رعاياه، غير أن تلك القوات المجندة بشكل مؤقت، والتي تشبه وحدات المرتزقة، تَسببت لاحقا في أزمات أمنية شديدة بمجرد خروجهم من الجيش ورجوعهم إلى بيوتهم.

وردا على أنشطة اللصوص المتزايدة في الأناضول والروملي عيّن السلطان مصطفى الثاني ولاة محليين جددا، وألغى قوات "ساريجا" و"سَكبان"، وهي قوات غير نظامية تضم جنودا مسلحين في الأقاليم. وقام السلطان بإرسال قوات عسكرية ضد المتمردين الذين ثاروا في الأقاليم بعيدا عن المركز أو قدّم بعض التنازلات لهم في بعض الأحيان.

ورغم أن السلطان مارس كثيرا من الضغط على موظفي الدولة من أجل إصلاح الجيش والإدارة والمالية،

معرض لفنّ الخط عقد في الإسطبلات السلطانية للقصر خلال السنوات الأولى لمتحف قصر "طوب قابي".

الخسائر في الأراضي بسبب معاهدتي كَارْلُوفيتز (سنة ١٦٩٩) وإسطنبول (سنة ١٧٠٠).

Buda
Debrecen
Hungary
Vasvár
Zagreb
Karlowitz
Timişoara
Braşov
Belgrade
Sarajevo
Passarowitz
Bosnia
Herzegovina
Dalmatia
RUMELIA
Niš
Nikopol
Mostar
Ragusa
Sofia
Tarnovo
Plovdiv
Shkodra
Skopje
Kavala
Ohrid
Salonica
Vlorë
Otranto
Ioannina
Trikala
AEGEAN SEA
Naupactus
Kefalonia
Morea
Athens
Kalamata
Crete
MEDITERRANEAN SEA
Territories lost after the treaties of Karlowitz (1699) and Istanbul (1700)
Territory ceded to Austria
Territory ceded to Kingdom of Poland
Territory ceded to Venice
Territory ceded to Russia

بالإضافة إلى إحياء فيلقي الانكشارية والسباهي بشكل خاص، فقد ذهبت جميع المحاولات لتحقيق أهدافه دون جدوى.

سُكّت العملات الذهبية التي تحمل طغراء (الختم الخطي أو توقيع) أحد السلاطين العثمانيين لأول مرة في عهد مصطفى الثاني، وقد قدم ذلك معيارا لتمييز العملات ذات العملة الحقيقية من العملات الأقل قيمة، وخصوصا بعد أن جمع التجار كميات كبيرة من العملات الذهبية الحقيقية من سوق إسطنبول وطرحوها في أسواق الأقاليم، وبخاصة في مصر.

يبدو أن فترة السلام التي تلت معاهدة كارلوفجا قد أدت إلى استقرار وتحسين ميزانية الدولة العثمانية، بالإضافة إلى حدوث جملة واسعة من التغييرات. فعلى سبيل المثال أُلغيت ضرائب الطوارئ، وأرسلت مراسيم سلطانية للإدارات المحلية بعدم فرض ضرائب جديدة على الرعايا. لكن السلطان مصطفى الثاني دخل في عزلة، وفصل نفسه عن شؤون الدولة واختار أن يعيش في أدِرْنه. وبسبب تلك العزلة الذاتية من جانبه وجهت إليه العديد من الانتقادات من العلماء والجنود والشعب، وانتشرت الشائعات التي تقول بأنه يسير على خطا أبيه الآن، وأنه بدأ يحصر جل اهتمامه بالصيد. ورغم فترة السلام فإن الانتقادات بالإضافة إلى ردود الفعل على الحروب الخاسرة والأراضي الضائعة أدت إلى اندلاع تمرد سُمّي بـ"حادثة أدِرْنه". وقد استهدف التمرد أولا كبير القضاة سيد فيض الله أفندي، مُعلّم السلطان ومستشاره، لكنه تصاعد في وقت قصير ليصبح ثورة ضد السلطان نفسه. وفي تلك الأثناء صدرت فتوى لصالح المتمردين، وقادوا الأمير أحمد إلى العرش. وبفضل جهود أحمد باشا والصدر الثاني حسن باشا، تم تجنب وقوع صدام مفتوح بين القوات في أدِرْنه ونظيرتها في إسطنبول.

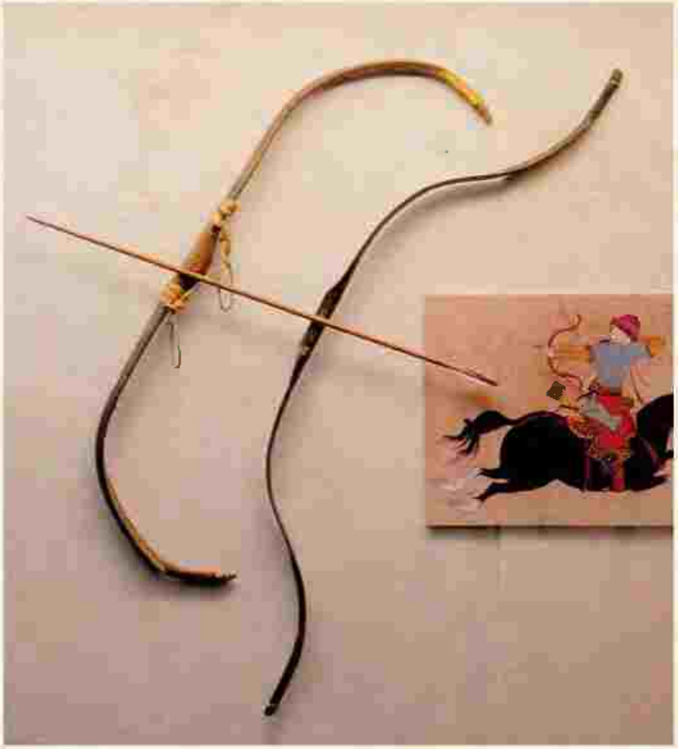

أقواس وأسهم عثمانية معروضة في معرض الأسلحة بمكتب الخزانة السابق بقصر "طوب قابي".

فقد السلطان مصطفى الثاني قواته عندما انضم جيشه في أدِرْنه إلى القوات القادمة من إسطنبول. وذهب مصطفى الثاني ليقابل شقيقه أحمد الثالث وقال له: "أخي الحبيب، رعايانا يريدونك سلطانا". وتنازل مصطفى عن العرش طواعية وأوصى أحمد بشدة أن يتأكد من معاقبة المتمردين لأنهم سيحاولون خلعه أيضا عاجلا أم آجلا. وبعد أربع سنوات من تنازله عن العرش، توفي مصطفى الثاني بسبب داء الاستسقاء في ٢٩ ديسمبر/كانون الأول عام ١٧٠٣.

آيات قرآنية مع أسماء العشرة المبشرين بالجنة مطرّزة على هذا القماش المصنوع من الساتان الأخضر المعروف باسم سانجاق شريف. وكان السلطان محمود الثاني هو آخر سلطان عثماني يأخذ معه سانجاق شريف في الحملات العسكرية.

٢١٦ صورة للسلطانة الوالدة كولنوش سلطان (١٦٤٧-١٧١٥)

كان السلطان مصطفى الثاني السلطان الأخير الذي يقود الجيش العثماني بنفسه في ساحة المعركة. وفي اليوم الثالث من توليه قال: "أنا ملتزم بالامتناع عن أي نوع من الراحة والترفيه". وبقي السلطان متحمسا لشن الغزوات حتى وقعت هزيمة زينتا عام ١٦٩٧، لكن تلك الهزيمة الساحقة دمرت فلسفته وأجبرته على عزل نفسه وشغلها بالصيد مثلما كان يفعل أبوه كثيرا. وقد قضي أكثر أيامه بأدِرْنه بالفعل؛ لأن حملات أوروبا كانت تبدأ من هناك.

كتب السلطان مصطفى الثاني العديد من القصائد والأناشيد الدينية مستخدما اسمي إقبال والمفتون، ولُحن بعضها لاحقا. وكان مصطفى الثاني خطّاطا بارعا تعلم على أيدي حافظ عثمان وخوجازاده محمد أنوري، أبرز الخطاطين المشهورين في عهده. إلى جانب دقته في رمي السهام والرماح. وتروي السجلات التاريخية أن السلطان كان أكثر قوة ونضجا واتزانا من سابقيه.

اهتم السلطان مصطفى الثاني اهتماما كبيرا بالمدن المقدسة، حتى خلال سنوات المعارك الطوال ضد النمسا، واستمر في إرسال المساعدات المالية والحربية للحرمين بانتظام. وبدأ في خطة تجديد شاملة بالحرمين الشريفين بمكة والمدينة. ومن بين هذه الأعمال تجديد الأعمدة التي كانت تدعم سقف الكعبة بالإضافة إلى تجديد الإطار الذهبي حول الحجر الأسود بالكعبة بشكل دقيق.

وقام مصطفى الثاني كذلك ببناء قبة على أربع دعامات ضخمة عند مبرك الناقة، وهي المكان الشهير بقباء في ضواحي المدينة حيث أنشأ الرسول ﷺ مسجده الأول، وتبرع بزمردة تزن ٤٠٠ قيراطا لدعم منطقة الروضة الشريفة بالمسجد النبوي بين قبر الرسول ﷺ ومنبره. وخلال عهده عكف المهندسون والحرفيون العثمانيون على إصلاح الآبار والسدود ومجاري المياه في الطريق الذي يربط بين دمشق والمدينة، كما حفروا عددا أكبر بكثير من الآبار، وجددوا محطات المياه بمكة، وكل ذلك لأجل راحة الحجيج.

كلف السلطان مصطفى الثاني سلاحدار محمد أغا فندقلي بتأليف كتاب حول الأحداث السياسية والعسكرية في عصره، حتى إنه اقترح جدول المحتويات. وفي النهاية نشر محمد أغا عمله العظيم تحت عنوان "نُصرت نامه". توفي أغلب أبناء السلطان في حياته، غير أن محمود الأول وعثمان الثالث -وهما ممن عاش من أبنائه- سوف يعتلون العرش فيما بعد.

الصفحة التالية: لوحة لموكب العطايا السلطانية، رسمها الفنان الإيطالي ستيفانو أوسي، وموجودة بقصر دولما باغجة بإسطنبول.